بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 59 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ:28\11\2023 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

ما زال البحث في قوله تبارك تعالى: ﴿وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾.

خلاصة المعنى الإجمالي لهذه الآية المباركة: إذا رميت بصرك هناك، أي في المكان الذي أعدَّ للأبرار، فيقصد بذلك الجنة، سوف ترى ﴿نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ فما أجمل هذا التنكير في الآية؛ إذ لو عرف وقال: وإذا رأيت ثم رأيت النعيم والملك الكبير لاختلف المعنى.

هذه الآية المباركة في الواقع أرادت أن تترك الذهن يسرح أيَّ انسراح ولا يقف عند حد، كل ما يتصوره ذهنك قل هو أكبر، بخلاف لو عرفنا اللفظين؛ إذ التعريف سوف يدل على تحديد للشيء.

هذا النظير قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ﴾[1] أيُّ حياة هذه، ليست حياة مشخصة، فالتنكير باعتبار ما يفيده من الإبهام يترك الخيال لا يقف عند حد، كل ما تتصوره ما سوف تراه هناك أكبر.

وهذا يذكرنا بقوله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[2] – وهي مشابهة لمحل كلامنا ﴿وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ﴾– وهذا معنى ما ورد في بعض الأخبار فيها (ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على بال بشر) ويستفاد من هذا تنوين التنكير في الآية المباركة.

فإذاً هذه الآية التي جاءت في خاتمة تلك النعم المتقدمة تريد أن تقول لنا إن هذه الأمور ذكرتها لتقريب الفكرة إلى الذهن، وإلا في الواقع ما أعدَّه الله تعالى للأبرار لا يمكن توصيفه بالألفاظ، ولا يمكن الوقوف على كنهه بالألفاظ.

يبقى أن هناك أموراً لابد من التدقيق فيها:

---

[1] البقرة: 179

[2] الملك: 4

الأمر الأول: أن ﴿إِذا﴾ التي تصدرت هذه الآية شرطية، فأين جوابها؟ فللوهلة الأولى قد يقال الجواب إما محذوف وإما ليس في هذه الآية فنبحث عنه في الآيات التي تأتي لاحقاً. لكن بالتدقيق رأيت الثانية هي جواب الشرط؛ لأجل ذلك في المقاربة الإجمالية شرحت المطلب، وإذا القيت بصرك، وإذا سرحت في نظرك هناك، ﴿ثَمَّ﴾ يعني هناك في ذلك المكان الذي أعدَّ للأبرار، ففعل الشرط إذا سرحت ببصرك هناك يحصل ﴿رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾.

فإذاً جواب الشرط مذكور في هذه الآية المباركة.

الأمر الثاني: المشار إليه بقوله ﴿ثَمَّ﴾ باعتبار أن ﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان للإشارة، فهذا المشار إليه لم يتقدم في الآية السابقة، فكيف حددناه؟

تحديد المشار إليه تماماً كتحديد مرجع الضمير، كما أن مرجع الضمير قد يكون مذكوراً صراحة كأن تقول فأرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصاه فرعون، فيرجع الضمير إلى ذلك الرسول الذي تقدم ذكره. وكذلك اشتريت فرساً وبعتها، أي بعت تلك بالفرس. لكن هذا الأمر ليس مضطرداً، قد يكون مرجع الضمير يفهم من السياق أو يفهم من المقام.

فيما نحن فيه في الآيات السابقة كان عمّا أعدّه الله سبحانه وتعالى من نعيم للأبرار، وهذا يقتضي وجود مكان لهم يسمى بالجنة، بل الآيات ذكرت الجنة في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرا﴾[3].

إذاً واضح أن الكلام في الواقع عن مشار إليه معلوم بوضوح من السياق، بل صُرّح به في بعض الآيات السابقة، فالأمر سهل.

الأمر الثالث: ما هو هذا الملك الكبير؟

يوجد بعض الروايات، لكن في بعض مقدمات التفسير سابقاً ذكرت إلى أن الروايات التفسيرية تكاد تنعدم، ومثل هذه الروايات نحملها على التفسير المصداقي لا على التفسير المفهومي، وإلا الملك الكبير

[3] الإنسان: 12

معناه واضح لا يحتاج إلى تفسير. فما يذكر في الروايات يكون إما هو المصداق الأبرز أو هو اللائق بحال السائل أن يعرفه.

وبهذه الخصوصية قلنا سابقاً يرتفع عن كثير من الأخبار، هناك أخبار متعددة تفسر الغيب بعضها الأخبار تفسره بالله سبحانه وتعالى، بعضها بالنبي صلى الله عليه وآله أي بالنسبة لنا هو غيب، وبعضها يفسره بالإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف، فلو كانت هذه تفسير مفهومي أو كانت من باب الانحصار لوقع بينها التعارض.

فهذه من باب التفسير المصداقي بحسب مقتضيات الأحوال، وبحسب ما يليق بالسائل، وبحسب التنبيه الذي ينبه عليه المعصوم عليه السلام فيذكر المصداق، فهي ليست من باب التفسير المفهومي، ولا من باب التفسير الانحصاري بالمصداق المذكور.

نعم قد تدل قرينة خاصة على ذلك، كما في القرينة الخاصة الواردة في واقعة مخصوصة في أهل البيت عليهم السلام، فيكون ذلك لخصوصية.

هناك روايتان تذكر مصداق الملك الكبير:

الرواية الأولى: ما جاء في الكافي في حديث طويل، والمعروف بحديث الجنان والنوق، يقول فيه: (وَ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ وَ عَزَّ- وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً- يَعْنِي بِذَلِكَ وَلِيَّ اللَّهِ وَمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالنَّعِيمِ وَالْمُلْكِ الْعَظِيمِ الْكَبِيرِ، إِنَّ الْمَلَائِكَةَ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ عَزَّ ذِكْرُهُ يَسْتَأْذِنُونَ [فِي الدُّخُولِ] عَلَيْهِ فَلَا يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَلِذَلِكَ الْمُلْكُ الْعَظِيمُ الْكَبِيرُ)[4] أي ملائكة الله في جلاله وعظمته وكبريائه إذا أرادوا أن يدخلوا على ذلك المكان لا يدخلون إلا باسم هذا الولي، هذا ملك عظيم.

الرواية الثانية: في معاني الأخبار هناك باب اسمه باب معنى الكبير -كتاب المعاني الأخبار للشيخ الصدوق تفصيله يفسر معاني بعض الكلمات القرآنية أو ما جاء في بعض الروايات- (قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام وَكُنْتُ جَالِساً عِنْدَهُ ذَاتَ يَوْمٍ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ- وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً مَا هَذَا الْمُلْكُ الَّذِي كَبَّرَهُ اللَّهُ حَتَّى سَمَّاهُ كَبِيراً قَالَ فَقَالَ لِي إِذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ

[4] الكافي (ط - الإسلامية)، ج8، ص: 98

أَرْسَلَ رَسُولًا إِلَى وَلِيٍّ منْ أَوْلِيَائه فَيَجدُ الْحَجَبَةَ عَلَى بَابه فَيَقُولُ لَهُ قفْ حَتَّى نَسْتَأْذنَ لَكَ فَمَا يَصِلُ إِلَيْه رَسُولُ رَبِّه إِلَّا بِإِذْنٍ فَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ- وَإِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً)[5].

إذاً هذا الشيء وهذه الخصوصية التي ذكرت في هذه الروايات وبنى عليها جملة من المفسرين من العامة والخاصة، في الواقع هذا ليس تفسيراً لمعنى الملك الكبير، وإنما هو مؤشر على عظمة الملك.

مثلاً في أواخر الدولة العباسية التي توسع مساحة الدولة الإسلامية إلى أبعد الحدود، كان ما يسمى بالخليفة العباسي في الواقع تحت الإقامة الجبرية، والمفروض أن الولاة يحكمون باسمه، عندما دخل الأتراك والمماليك وغير هؤلاء، وكل واحد صار يأخذ الإجازة من هذا الخليفة العباسي، لكن متى ما شاء يقتل هذا الخليفة ويدخل عليه أي ما شاء، فأيُّ ملك هذا!

إذاً هذا الاستئذان من قبل ملائكة الله سبحانه وتعالى هو في الواقع مؤشر على عظمة هذا الملك، وليس تفسيراً للملك الكبير، أي عظمة هذا الملك وصلت إلى درجة أن ملائكة الله سبحانه وتعالى، وهم رسل الله سبحانه وتعالى إلى ذلك الولي يستأذنون منه قبل الدخول عليه، فما أعظم هذا الملك!

ومن جملة الأمور التي يمكن أن نقف عندها في هذه الآية المباركة أن كلمة ﴿رَأَيْتَ﴾ أولى هل لها مفعول به؟ وكذلك الثانية.

قبل ذلك، هل لها فاعل معين؟ هنا في الفاعل المعين اختلف المفسرون، جماعة قالوا إن المخاطب هو النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ﴿وإذا رأَيْتَ﴾ يا محمد صلى الله عليه وآله.

ولكن في مثل هذه الآيات الشريفة التي تقع الرؤية فيها بعد ﴿إذا﴾ وما شابهها نحملها أنه ليس المقصود منها مخاطب مخصوص؛ للتدليل على ظهور الحال، فكل من يتأتى منه أن يسرح نظره في ذلك المكان سوف يرى النعيم الملك الكبير، وليس خصوص النبي الأعظم صلى الله عليه وآله.

هذا فيه نوع من التأكيد على عظمة هذا الملك وظهور حاله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّار﴾[6] أيضاً هنا نقول أن هؤلاء في عذابهم قد ظهر حالهم لأهل المحشر بحيث كل من يتأتى

---

[5] معاني الأخبار، النص، ص: 210
[6] الأنعام: 46

منه الرؤية يظهر له فضاعت حالهم، وهذا شائع في اللغة العربية، استعمال أداة الخطاب التي هي للمعرفة المخصوصة لمخاطب غير مخصوص، كما في قول الشاعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإذا أنت أكرمت اللئيم تمردا

ليس خصوص المخاطب، بل المراد حال الكريم وحال اللئيم هكذا، أن كل من يكرم الكريم يملكه، وكل من يكرم اللئيم يتمرد عليه. هذا شائع في اللغة العربية.

أما بلحاظ المفعول، في هذه الآية المباركة هناك خلاف بين البصريين والكوفيين، بين الفرّاء والزجاج، فالفراء يرى أن المفعول به اسم موصول محذوف، وإذا رأيتَ ما ثَمَّ، ما اسم موصول محذوف.

وقال هذا نظير قوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُم﴾[7] أي تقطّع ما بينكم، أي الذي بينكم.

بينما الزجاج يقو إن (ما) لا يجوز حذفها؛ لأن ﴿ثَمَّ﴾ التي هي ظرف هي الصلة، ولا يصح حرف موصول وإبقاء الصلة.

ما نراه –مع قطع النظر عن هذا البحث النحوي– أن المعنى بدون تقدير تام ﴿وإِذا رَأَيْتَ﴾ أي إذا جلت بنظرك، هنا لا نحتاج إلى مفعول مخصوص، نظير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى﴾[8] فأعطى فعل يتعدى إلى مفعولين، والنحاة لا يقدرون مفعول به هنا؛ لأن مراد الباري سبحانه وتعالى أن يبين أنّ الصفة العطاء ممدوحة، لا يهمنا ما الذي تعطي ولمن تعطي، هناك مدح على العطاء، فلا نحتاج إلى مفعول به.

ما نحن فيه من هذا القبيل، فالمعنى تام، ولا نحتاج إلى أي تقدير.

---

[7] الأنعام: 94
[8] الليل: 5